الأخبار ■ الاثنين 1 آذار 2010 العدد 1055

نهاية أسطورة الموساد

الديموقراطيّة، حتى لو نجحت في تجنيد عميل هنا أو هناك. ويعترف هاني الحسن في كتاب هليلينا كوبان عن منظمة التحرير الفلسطينيّة بأن قيادة المنظمة وجدت صعوبة بالغة في غربلة المتقدمين بطلبات انتساب إلى صفوف المنظمات الفلسطينيّة، لأن الأعداد ـ بعد مواجهة الكرامة في الأردن ـ كانت بعشرات الآلاف. كذلك، إن إسرائيل كانت دائماً ترمي عبر الحدود بعدد من الفلسطينيّين الذين تزعم أنهم مساجين. من يدري كم سرّبت إسرائيل بينهم من عملاء؟ ويلاحظ المرء أن أبشع رموز السلطة الأمنيّة الدحلانيّة في رام الله كانوا في عداد «المساجين» في إسرائيل.

وتستطيع أن تتبيّن فشل الموساد وغبائه في أكثر عملياته شهرة، أي في ملاحقة «أيلول الأسود». لم تعلم إسرائيل، ربما حتى طلع أبو داود بمذكّراته، أن أبو أياد كان القائد الفعلي. لم تعلم إسرائيل أن أبو حسن سلامة كان يزهو ويتبجّح. قتلت إسرائيل الكثيرين في ملاحقتها لأيلول الأسود وفيهم كثيرون ممن لم يكن له أي علاقة: مثل النادل المغربي أحمد بوشيكي، الذي قتله الموساد في النروج أمام زوجته الحامل عام 1973 لأنه ظن أنه سلامة (مثلما خطف المواطن حسن نصر الله من بعلبك عام 2006 ظناً من الموساد أن هناك حسن نصر الله واحداً).

الحرب اللبنانيّة فتحت أبواب لبنان أمام إسرائيل، لتقتل وتجنّد وتقيم تحالفات مع أحزاب أساسيّة في لبنان. تنافس بعض اللبنانيّين (واللبنانيّات حتى لا ننسى تلك السيّدة التي لم تُعاقب بعد لإعدادها أطعمة لأريل شارون) على التعامل مع الاحتلال الإسرائيلي. لكن مقاومة إسرائيل أنشأت ثقافة جديدة (أو أعادت الروح إلى ثقافة رفض إسرائيل التي سادت بعد 1948)، كذلك فإن حزب الله تعلّم من تجربة منظمة التحرير الفاشلة (عرفاتيّاً) في مواجهة إسرائيل، ولجأ إلى العمل السرّي. حاول أبو إياد وغيره من القادة الحفاظ على السريّة، لكن قادة آخرين من شاكلة أبو الزعيم (وحتى أبو حسن سلامة) ضعفوا أمام الأضواء. غير أن التفوّق العسكري الإسرائيلي كان يعود في حقيقته إلى الضعف السياسي العربي والالتزام الأميركي المطلق منذ 1967 بحق إسرائيل في العدوان المطلق، بالإضافة إلى إيلاء الأنظمة العربيّة الأهميّة القصوى للحفاظ على العرش، لا للدفاع عن الحدود أو لتحرير الأرض المحتلّة. لكن الأنظمة العربيّة بالغت هي أيضاً في الترويج لنظريّة عبقريّة الموساد ومهارته. أرادت أن تُشعر الشعب العربي بالعجز الشديد ليسهل تطويعه، ولتسهل عمليّة التخلّي عن قضيّة شعب فلسطين برمّتها. لا شك في أن الأنظمة العربيّة أرادت أن تسهم في تعظيم القدرة الاستخباريّة الإسرائيليّة لتقول لشعوبها: لا حول لنا ولا قوة.

لكن هناك عاملاً آخر يبرز أكثر ما يبرز في لبنان. نجحت الدعاية الصهيونيّة، المُباشرة والمداورة، في تبخيس وعدم تصديق أي إعلان عن كشف شبكات تجسّس إسرائيلي. ما إن يهم الواحد بلفت النظر إلى مخطط إسرائيلي مزروع أو إلى ملاحظة التطابق التام بين بعض المطالب في بلد عربي ـ لنقل لبنان، لسبب واضح ـ ومطالب إسرائيل داخل ذلك البلد حتى يُقال (من أدعياء السلام مع إسرائيل أو من أدعياء النضال بالرخاء ضد إسرائيل ـ كما نادت نايلة تويني) إن التخوين ممنوع. وإذا كان التخوين ممنوعاً، فالاستنتاج أن تسويق إسرائيل يصبح مسموحاً ومباحاً كما هو حاصل في لبنان حيث يتخفّى بعض أوثق حلفاء إسرائيل التاريخيّين وراء شعار «لبنان آخر دولة توقّع اتفاق سلام مع إسرائيل». هذا لا يعني أن الأنظمة العربيّة، بما فيها النظام اللبناني في عهد لحّود عندما رتّب رستم غزالة (الذي ينتظر دعوة قريبة لحضور اجتماعات الأمانة العامّة لـ14 آذار لإعادة وصل ما انقطع مع أصدقاء الأمس) أمر اتهام تحسين خيّاط بالعمالة لإسرائيل فقط لأن «نيو تي في» تجرّأ في زمن جبُنت فيه الشاشات الأخرى. والأنظمة البعثيّة وتنظيمات الاستخبارات العربيّة في منظمة التحرير هي أيضاً استسهلت تهم العمالة لإسرائيل، وهذا الاستسهال يؤدّي في النهاية إلى إمرار العمالة لإسرائيل لأن الاتهام الباطل يستوي مع الاتهام ذي الصدقيّة والقرائن في ذهن العامّة. بناءً على ذلك، يصبح كل اتهام باطلاً، ما يدع الموساد يسرح ويمرح

> احتقار العنصر العربي يساعد العربي وأكبر دليل هزيمة إسرائيل في حرب 1973

في الشوارع العربيّة. لكن الأنظمة العربيّة لا تمانع في استسهال الدخول الإسرائيلي إلى الشوارع العربيّة، وخصوصاً إذا كان هذا الدخول ضد أعداء مشتركين.

ومسألة غضب الملك حسين (أو «خسين»، كما يسميه شمعون بيريز) من الحكومة الإسرائيليّة بعد تعثّر محاولة اغتيال خالد مشعل في عمّان كانت بسبب انفضاح العمليّة، لا بسبب حدوثها، وخصوصاً أن النظام في الأردن كان متعاوناً لعقود مع الموساد ضد الخطر الفلسطيني المُشترك. والنظام المغربي تعاون مع الموساد لعقود أيضاً، والحرب السعوديّة في اليمن (الأولى والثانية، على الأرجح) استفادت من تعاون إسرائيلي. ومن المرجح جدّاً أن يكون نظام جمال وعلاء مبارك يتلقى معونات موساديّة، فيما هو يقوم بما يُطلب منه في الحدود مع رفح.

صمتت الأنظمة العربيّة إثر اغتيال المبحوح في دبيّ. وقائد شرطة دبي الكفوء بدا كأنه الحاكم الفعلي لأن رئيس الدولة وحاكم دبي تمنّعا عن التعليق، ربّما لعدم إحراج إسرائيل، وخصوصاً أن أولاد زايد ينافسون النظام الأردني في التقرّب من إسرائيل. وقد يفقد قائد شرطة دبيّ وظيفته لقيامه بواجب الوظيفة على أكمل وجه. التغلغل الموسادي ما كان يجب أن يظهر للعلن. لكن الإحراج الأكبر أصاب إسرائيل. هذه هي المنظمة التي تباهي بنجاحاتها الحقيقية والمُختلقة تظهر مثل ما كانت تظهر به الاستخبارات العربيّة في حقبتها البدائيّة. من كان يتوقّع من شرطة دبيّ أن تنشر أمام الإعلام العالمي صوراً وأشرطة فيديو لعملاء الموساد وهم يتجوّلون ويتنكّرون ويتعقّبون. يمكن عزو الفشل الموسادي في جانب منه إلى العنصريّة الكامنة في الصهيونيّة. إن احتقار العنصر العربي يُساعد العربي، والاستهانة بالقدرات العربيّة ساعدت العرب في حرب 1973 (التي نجح السادات في تحويلها من فوز مظفّر إلى هزيمة للعرب) كما ساعدها في حرب تمّوز التي خيّب حزب الله في نجاحه فيها آمال فريق «الأمير مقرن أولاً». واضح أن الحكومة الإسرائيلية تعاملت مع أجهزة الأمن في دبيّ باحتقار شديد، ما ساعد في افتضاح أمرها. كذلك فإن عملاء لم يحاولوا الاختفاء فيما هم يتجوّلون ويتعقبون ضحيّتهم. كادوا يضحكون أمام الكاميرا ويلوّحون لعائلاتهم في الكيان الغاصب. انكشف أمرهم.

هناك من سيقول إن الموساد نجح في اغتيال ضحيّته، وهذا صحيح. كل ضحيّة تسقط برصاص العدو أو سمه أو يده يجب أن تسجّل على دفاتر كما نصح شاعر فلسطيني. لكن الموساد خسر العملاء ـ القتلة الذين نشر قائد شرطة دبيّ صورهم حول العالم. وهناك في الإعلام العربيّ من لم يستطع أن يفوّت الفرصة ليسجّل نقاطاً لإسرائيل. محطة «العربيّة» تدخّلت بعد أيام لتكرّر في نشرات أخبارها أن «القاتل الفعلي» هو عضو في حماس. نوّهت جريدة «يديعوت أحرونوت» بانبهار «الشرق الأوسط» باغتيال الموساد، كذلك فإن مصطفى العاني (الخبير «الاستراتيجي» المفضّل في إعلام آل سعود وآل نهيان) حاول في كلام في جريدة النيو يورك تايمز (أو في ما اختارت الجريدة المذكورة أن تعزو له من كلام) أن يفسّر وأن يهوّن من الفشل والفضيحة الإسرائيليّة. الصحافة العبريّة، كعادتها، تستكين في الأمور الاستخباريّة ولا تنشر إلا ما يليق بالمصلحة الدعائيّة لاستخبارات العدوّ. وأبواق الموساد في الإعلام الغربي، مثل إيان بلاك في «الغارديان»، يجهدون في اختلاق أعذار الفشل وفي التغطية وبث الحرب النفسيّة. هناك اختار العدوّ أن يلفق تشنيعة اعتقال دمشق لمسؤول في حماس زعم (أو كذب) بلاك أنه مسؤول عن الاغتيال. مهما قالوا، العدوّ في ورطة.

يكفي أن تقول إنه في عام 2010 تغلّبت الشرطة اللبنانيّة (التي درج الجاسوس فيلبي على السخرية منها على مرّ السنين) وشرطة دبيّ على الموساد. (هناك مصدر «عليم جدّاً» في بيروت أخبرني أن واحداً من أجهزة الاستخبارات اللبنانيّة وقعت بالصدفة على شبكة تجسّس على حزب الله، عندما كانت هي تقوم بالتجسّس على حزب الله). ليس بالأمر الهيّن أن لبنان كشف وقبض على أكثر من 80 عميلاً إسرائيليّاً. ساعدنا احتقار العدو لنا، كذلك فإن الهوّة التكنولوجيّة بين المواطن العادي وأجهزة الاستخبارات تضيق (من كان يتوقّع أن المزارع في قرية صغيرة في لبنان يحمل جهاز تليفون يستطيع أن يلتقط صوراً وشرائط فيديو ويستطيع أن يحدّد الموقع عبر القمر الاصطناعي، ويستطيع أن يتراسل عبر الإنترنت ويستطيع أن يفجّر عبوة، لو أراد)، والهوّة بين استخبارات إسرائيل وأجهزة استخبارات الأنظمة العربيّة وحتى استخبارات المقاومة تضيق هي أيضاً. والحافز الأيديولوجي يخفت عند العدوّ حيث هاجر مئات الآلاف من روسيا والاتحاد السوفياتي السابق بهدف الرزق، لا لتحقيق حلم هرتزل: والتراخي الأيديولوجي يظهر في ساحات القتال، فيما يزداد العامل الأيديولوجي شدّة عند فصائل المقاومة الأساسيّة ممن يؤمنون بحتميّة زوال الكيان الغاصب. هذا يختلف مقارنةً بالسقف الذي وضعه عرفات فوق رؤوس المقاومين، السقف الذي ينتهي بعودته لترؤس دويلة ذليلة على ورق غير مقوّى.

لا يمكن أن نتوقّع أن يؤدّي الاغتيال في دبيّ وفضيحة الغباء الموسادي إلى عقاب إسرائيل. هذه دولة لا تُعاقب على جرائم حربها (ماذا حدث بزعم السنيورة وشارل رزق عن نيّة لبنان تقديم شكوى في مجلس الأمن ضد جرائم حرب إسرائيل؟ وكيف لا يكون هذا الأمر المهمّة الأولى للبنان في مجلس الأمن؟ أم أن «العزيز جيف» طالبهم بغض النظر لأنه كان من الفريق الذي تبنّى العدوان وأجّج له؟) ومن المستبعد أن تُعاقب على جريمة الاغتيال هذه. لكن صورة الموساد تكسّرت، وهذه خسارة إسرائيليّة استراتيجيّة لا تُعوّض. الحرب النفسيّة عماد للصهيونيّة، ومقاومتها لا تحتاج إلى أسلحة متطوّرة أو إلى طائرات الهزل التي يلوّح بها الياس المرّ. مواجهة الحرب النفسيّة تحتاج إلى ذكاء وعلم وتنبّه. كذلك فإنها تحتاج إلى ثقة بالنفس وإلى عدم التقليل من قدرات العدو، وعدم المبالغة في قدرات العدو.

* أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة كاليفورنيا (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)